

دخلفاء الرسول

من افتتأ حياتهم ووصاياهم

الفرع السفياني

د. حامد غنم أبو سعيد

ابتداء من حجة الوداع في السنة العاشرة للهجرة. وفي عصر الخلفاء الراشدين. أخذت تظهر ملامح تقليد صار بعد ذلك نهجاً متبعاً لدى الكثيرين ممن تعاقبوا على منصب الخلافة الإسلامية. والتقليد الذي أعنيه يتمثل في تلك الخطبة الافتتاحية التي كان يستهل بها الخليفة عهده. وأيضاً تلك الوصية أو الوصايا كان يخلفها في نهاية مرحلته. ففي الافتتاحية كان الخليفة يقدم في شكل خطوط عامة السياسة الأساسية التي سير عليها، والتي تشكل أساس الائتقاء بينه وبين الرعية. وكأنه يريد أن يقول: إن خروجه عن هذه السياسة يعتبر إيداناً للرعية بأن تسحب البيعة أو الثقة التي سبق أن منحها إياه. كما أن الوصية التي تصدر عن الخليفة في آخر عهده بالحياة تؤكد حرصه الشديد على سلامة مستقبل الدولة، ورغبته الأكيدة في استمرار سيرتها على النهج الذي رسمه أو الذي يبرجوه لها.

وتقدم خطبة الرسول ﷺ في حجة الوداع مجموعة من الوصايا الخالدة والتي أوصى بها نبي الإسلام جميع المسلمين في مختلف البلدان والأزمان، وعلى كافة المستويات، ومع اختلاف الأصول وتباين اللغات.

ثم وجه الصديق حديثه الى عمر رضي الله عنها فقال:

«يا عمر: إن لله حقاً بالليل لا يقبله في النهار، وحقاً في النهار لا يقبله بالليل، وأنه لا يقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة، ألم تر يا عمر إنما نقلت موازين من نقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق وثقله عليهم، وحق لميزان لا يوضع فيه غداً إلا حق أن يكون ثقيلاً، ألم تر يا عمر إنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل وخفته عليهم، وحق لميزان لا يوضع فيه غداً إلا باطل أن يكون خفيفاً.»

ألم تر يا عمر إنما نزلت آية الرخاء مع آية الشدة، وآية الشدة مع آية الرخاء ليكون المؤمن راغباً راهباً، ولا يرغب رغبة يمتنى فيها على الله ما ليس له، ولا يرهب رهبة يلقى فيها بيديه.

أو لم تر يا عمر إنما ذكر الله أهل النار بأسوأ أعمالهم، فإذا ذكرتهم قلت: إني لأرجو ألا أكون منهم، وأنه إنما ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم لأنه يجاوز لهم ما كان من سيء فإذا ذكرتهم قلت: أين عملي من أعمالهم؟! فإن حفظت وصيتي

عقب وفاة الرسول ﷺ، وفي سقيفة بني ساعدة، تم الاتفاق على مبايعة أبي بكر الصديق بالخلافة، وفي اليوم التالي، وفي المسجد كانت البيعة العامة، وعلى المنبر افتتح أبو بكر الصديق عهده بخطبة قال فيها بعد حمد الله والثناء عليه⁽¹⁾:

«أما بعد، أيها الناس، قد وليت أمركم ولست بخيركم، ولكن نزل القرآن وسن النبي ﷺ السن فعلمنا، اعلموا أن أكيس الكيس التقوى، وأن أحق الحق الفجور، وأن أفواكم عندي الضعيف حتى آخذ له بحقه، وأن أضعفكم عندي القوى حتى آخذ منه الحق، أيها الناس إنما أنا متبع ولست بمبتدع، فإن أحسنت فأعينوني وإن زغت فقوموني⁽²⁾».

وفي مرضه الأخير أشرف أبو بكر رضي الله عنه على الناس وقال:

«أترضون بما استخلفت عليكم؟ فإنني ما استخلفت عليكم ذا قرابة، وإنني قد استخلفت عليكم عمر، فاسمعوا له وأطيعوا، فإنني والله ما ألوت من جهد الرأي»⁽³⁾.

فلا يكونن غائب أحب إليك من حاضر من الموت، ولست بمعجزه».

وقد أسهم الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه في إرساء قواعد هذا التقليد، فقد سجل له التاريخ أنه افتتح عهده بخطبة قال فيها^(٤) :

«أما بعد، فقد ابتليت بكم وابتليت في، وخلفت فيكم بعد صاحبي، فن كان بحضرتنا بأشرناه بأنفسنا، ومها غاب عنا ولينا أهل القوة والأمانة، فن يحسن زرده حسناً، ومن يسي نعاقه، وبغفر الله لنا ولكم».

كما سجل له التاريخ أنه ترك وصية مكتوبة وفيها بقول^(٥) :

«أوصى الخليفة من بعدي بتقوى الله، وأوصيه بالمهاجرين الأولين خيراً، الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يتبعون فضلاً من الله ورضواناً، وينصرون الله ورسوله، أن يعرف لهم حقهم، ويحفظ لهم كرامتهم، وأوصيه بالأنصار خيراً، الذين تباؤوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ... أن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن

مسيئهم، وأن يشركوا في الأمر، وأوصيه بذمة الله وذمة محمد أن يوفي بعهدهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم، وأن يقاتل من ورائهم».

أما عثمان، رضي الله عنه، فإنه عقب بيعته خرج إلى الناس فخطبهم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال^(٦) :

«أيها الناس إن أول مركب صعب، وإن بعد اليوم أياماً، وإن أعش ثأنتكم الخطبة على وجهها، وما كنا خطباء وسيعلمنا الله».

• • •

أما الخليفة الرابع علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقد سجل له التاريخ أنه افتتح عهده بخطبة، واختتمه بوصية، بقول رضي الله عنه في افتتاحيته^(٧) .

«ذمني بما أقول رهينة، وأنا به زعيم، إن من صرحت له العبر عما بين يديه من المثالات، حجزته التقوى عن تقحم الشبهات، ألا وإن بليتكم قد عادت كهيئتها يوم بعث الله نبيه، والذي بعثه بالحق لتبليبن بلبلة، ولتغربلن غربلة، ولتساطن سوط القدر، حتى

يعود أسفلكم أعلاكم، وأعلاكم أسفلكم، وليسبقن سابقون كانوا قصفوا، وليقصرن سابقون كانوا سبقوا.

وعقب الطعنات التي وجهها إليه عبد الرحمن بن ملجم قال رضي الله عنه موصياً ولديه الحسن والحسين^(٨).

«أوصيكما بتقوى الله، وألا تبغيا الدنيا وأن بغتكما، ولا تأسفا على شيء منها زوى عنكما، وقولا بالحق واعملا للأجر، وكونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً. أوصيكما وجميع ولدي وأهلي ومن بلغه كتابي بتقوى الله، ونظم أمركم، وصلاح ذات بينكم، فإني سمعت جدكنا صل الله عليه وآله يقول:

صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام.

الله الله في الأيتام، فلا تبغوا أفواههم ولا يضيعوا بحضرتكم.

والله الله في جيرانكم، فإنهم وصية نبيكم، مازال يوصي بهم حتى ظننا أنه سيورثهم.

والله الله في القرآن لا يسبقكم بالعمل به غيركم.

والله الله في الصلاة فإنها عمود دينكم.

والله الله في بيت ربكم، لا تخلوه ما بقيتم، فإنه ان ترك لم تناظروا.

والله الله في الجهاد بأموالكم وأنفسكم وألستكم في سبيل الله.

وعليكم بالتواصل والتبادل، وإياكم والتدابير والتقاطع، لا تنزكوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيولي عليكم أشراركم، ثم تدعون فلا يستجاب لكم.

ثم قال: «يا بني عبد المطلب، لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين خوفاً تقولون: قتل أمير المؤمنين، قتل أمير المؤمنين: ألا لا تقتلن في إلا قاتلي، انظروا إذا أنامت من ضرته هذه فاضربوه ضربة بضربة، ولا تمتلوا بالرجل، فإني سمعت رسول الله، ﷺ، يقول:

إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور».

وهكذا - ودون الدخول في التفاصيل - يتبين لنا أن كلا من الخلفاء الراشدين كان حربياً أن يوضح في

إلى أبي سفيان بن حرب بن أمية، والثاني الفرع المرواني، نسبة إلى مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية، وبلقي الفرعان، كما هو واضح، في الجذ الأعلى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف. وقد قدم الفرع السفياني للدولة الأموية ثلاثة خلفاء، أولهم معاوية بن أبي سفيان، وثانيهم ابنه يزيد، أما الثالث والأخير فهو معاوية بن يزيد بن معاوية.

وأغنى الثلاثة وأكثرهم إثراء في مضمار الافتتاحيات والوصايا هو أولهم معاوية بن أبي سفيان، مؤسس الدولة وباني مجد الأسرة الأموية، وهو في هذا الميدان معلم وصاحب مدرسة سياسية لا يقتصر تأثيرها على الفرع السفياني أو الدولة الأموية فحسب، بل يمتد حتى بشكل معلماً سياسياً بارزاً في تاريخنا الإسلامي على امتداده الطويل.

خلف لنا معاوية افتتاحية ووصيتهن نضبان داخلها مجموعة من الوصايا الجزئية، ويعتبر هذا التراث بحق من عيون الفكر السياسي لرجل دولة من طراز فريد، في افتتاحيته يرسم منهجه في الحكم وأسلوبه في التعامل، وفي وصيته

بداية عهده، ومن خلال خطبة افتتاحيته، منهجه في العمل والخطوط العريضة لأسلوبه في الحكم وطريقته في قيادة الدولة الإسلامية، كما كان كل منهم حريصاً أيضاً على أن يترك وصيته، إما في شكل حديث موجه إلى الرجل الذي سيلي الأمر من بعده، وإما في شكل حديث عام يخاطب من خلاله كافة المسلمين، وفي كلتا الحالتين فإننا ندرك أن الوصية كانت نوعاً من إبراء الذمة، وشكلاً من أشكال تحرير النفس من تبعه المسئولية، خاصة وأنه على أبواب المسألة الكبرى بين يدي الله سبحانه وتعالى.

وافتاحيات الراشدين ووصاياهم، على إيجازها، تقدم نخطاً متميزاً للتكامل بين العقيدة الإسلامية وقيادة الدولة في مجالاتها المختلفة السياسية والعسكرية والإدارية.

٢ - افتتاحية معاوية:

ينقسم خلفاء الدولة الأموية من حيث الأب الذي ينتمون إليه إلى فرعين: الأول هو الفرع السفياني، نسبة

علمتموه فقد جعلته دبر أذني، وإن لم تجدوني أقوم بحقكم كله فارضوا ببعضه، فإنها ليست بقائبة قوبها، وإن السيل إن جاء يبرى، وإن قل أغنى، إياكم والفتنة فلا تهموا بها فإنها تفسد المعيشة وتكدر النعمة، وتورث الاستئصال، وأستغفر الله لي ولكم».

• • •

ولكي نعرف الجو العام الذي أقيمت فيه هذه الافتتاحية فإنه يكفي أن نذكر أن أهل الحجاز كانوا يشكلون جماعة المعارضة الأساسية لخلافة معاوية، وأن معاوية وصل إلى منصب الخلافة من خلال التطورات التي تتابعت في الدولة الإسلامية عقب اغتيال الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه في أواخر ذي الحجة من سنة ٣٥هـ، ومن أبرز هذه التطورات ثلاثة أحداث، أولها معركة صفين بين علي ومعاوية رضي الله عنهما في سنة ٣٧هـ، وثانيها موت الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه نتيجة لطعنات خارجي هو عبد الرحمن بن ملجم، وذلك في سنة ٤٠هـ، والثالث تنازل الحسن بن علي عن الخلافة لمعاوية

يحدد لمن سبيل الأمر بعده أبعاد المواقف التي سيواجهها ويقدم الحلول المناسبة لها.

ونترك الافتتاحية تقدم معاوية، أو معاوية يقدم افتتاحيته؛ فقد ذكر أن معاوية أول عهده بالخلافة قدم المدينة النبوية فقصده المسجد^(٩)، وعلا المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال^(١٠)؛

«أما بعد، فإني والله وليت أمركم حين وليته وأنا أعلم أنكم لا تسرون بولائي ولا تحبونها، وإني لعالم بما في نفوسكم، ولكن خالستكم بسني هذا مخالسة».

ولقد أردت نفسي على عمل أبي بكر وعمر فلم أجدها تقوم بذلك، ووجدتها عن عمل عمر أشد نفوراً، وحاولتها على مثل سنين عثمان، فأبت علي، وأبين مثل هؤلاء، هيات أن يدرك فضلمهم، غير أني سلكت طريقاً لي فيه منفعة، ولكم فيه مثل ذلك، ولكل فيه مواكفة حسنة ومشاركة جميلة ما استقامت السيرة، فإن لم تجدوني خيركم فأنا خير لكم، والله لا أحمل السيف على من لا سيف معه، ومهما تقدم مما قد

بعد شهر من سنة ٤١ هـ.

ومن مراجعة المصادر التاريخية يلمس الباحث أن عدداً من الشخصيات الحجازية البارزة كانت تتابع هذه التطورات باهتمام بالغ، وأنها صدمت بالنتيجة النهائية التي أسفرت عنها، غير أن هذه النتيجة غدت أمراً واقعاً، وليس في وسع هذه الشخصيات أو بعضها أن تفرض واقعاً آخر غير الواقع الذي تمثل في صيرورة معاوية خليفة للمسلمين، ولم يعد في مقدورها إلا أن تنتظر وتزق ما سيأتي به الخليفة المقيم ببلاد الشام.

حقيقة تاريخية جديدة تلك التي أخذت تفرض نفسها ابتداء من عام الجماعة، وهي أن معاوية قد أقام خلافته بأسلوب يختلف عن ذلك الذي اتبع في وصول كل من الخلفاء السابقين إلى المنصب الكبير، وهذه الحقيقة تحمل في ثناياها حقيقة تاريخية أخرى، وهي أن بلاد الشام قد انتزعت زعامة العالم الإسلامي من الحجاز مهد الدعوة الإسلامية، ومركز الدولة الإسلامية في

سنواتها الزاهرة، هاتان الحقيقتان ألقيتا على كاهل الزعامات الحجازية - وخاصة تلك التي عاشرت ولو لفترة قصيرة عصر الرسالة وما أعقبه من عهود الراشدين - عبئاً ثقيلاً يثنون تحت وطأته وقسوته، وفي الوقت نفسه لا يستطيعون التخلص منه وتحرير مشاعرهم من غلبته وتسلطه.

• • •

في هذا الجو ألقى معاوية خطبته التي تعتبر افتتاحية، وفيها رسم مؤسس الدولة الأموية للأمة الإسلامية الخطوط العريضة للسياسة التي سسير عليها، حقيقة ألقى هذه الخطبة في المدينة المنورة، وفي مواجهة أهل الحجاز، ولكن لا يغيب عنا أن المدينة المنورة قد ظلت مركز الدولة الإسلامية قرابة أربعين سنة، وهذه السنوات تشمل عصر الرسالة، وأن زعماء المدينة المنورة كانوا يمثلون إلى جانب بلاد الحجاز بقية البلاد والأقاليم الإسلامية.

ومن تحليل هذه الافتتاحية يتبين لنا أنها تقوم على أربعة عناصر أساسية، كل

منها بشكل وحدة ضرورية في بنائها وتكاملها، في العنصر الأول أبرز معاوية حقيقة العلاقة بينه وبين أهل الحجاز كما يراها هو، وكما سجلها أحداث التاريخ، وفي العنصر الثاني حدد معاوية مكانته إلى جانب مكانة ثلاثة من الخلفاء السابقين، أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، وفي العنصر الثالث عرض معاوية سياسته بوضوح وبلا مواربة، والعنصر الرابع على تحذير معاوية لمستعبيه من الإقدام على عمل يؤدي إلى الفتنة ويفرق كلمة المسلمين.

يتفحص الجزء الأول من الخطبة يدرك الباحث بجلاء أن معاوية قد تكلم بوضوح وصراحة تامة، شأن ابن الصحراء المنطلق والذي يصل إلى غاية من أقصى الطرق، وألفاظ هذا الجزء لا تحمل شيئاً من ظلال الدبلوماسية التي تعتمد إلى تغليف الألفاظ بما يخفف من وقعها، كل هذا بعد قسم مؤكد استهل به الرجل جدبته:

«فإني والله وليت أمركم حين وليته وأنا أعلم أنكم لا تسرون بولائي ولا تحبونها، وإني لعالم بما في نفوسكم،

ولكن خالستكم بسني هذا مخالسة». ويؤكد هذا الجزء من خطبة معاوية على حقيقتين تاريخيتين هما: عدم سرور أهل الحجاز بخلافة معاوية، والثانية أن القوة هي التي حسمت قضية الخلافة لصالح معاوية، ليست القوة المجردة ولكنها القوة التي استخدمها معاوية بعبقريته ودهاء لم يتوفرا للمعارضة الحجازية.

«..... ولكني خالستكم بسني هذا مخالسة».

وفي الجزء الثاني من افتتاحيته يقرر معاوية أنه حاول حمل نفسه على الاقتداء في حكمه بواحد من الخلفاء الثلاثة الأوائل، أي بكر أو عمر أو عثمان رضي الله عنهم، ولكن نفسه نفرت من ذلك وأبت عليه، وذلك لما تميز به كل من هؤلاء الثلاثة بقدرات تفوق دونها قدرات معاوية بكثير.

وهذا القسم من الافتتاحية يحمل حقيقتين، الحقيقة الأولى: أن عصر الراشدين الثلاثة عصر متميز، وذلك لأن كلاً منهم عاصر الرسول ﷺ فترة

المبادرة بالعدوان وهذا يحمل في طياته أنه لن يتواني عن استخدام السيف لدفع العدوان، هذا بالنسبة للمستقبل أما الماضي، ولا شك أنه كان مثار تساؤل الكثيرين من أهل الحجاز، فقد حدد معاوية موقفه منه بكل وضوح حين أكد أنه نسي أو تناسى الماضي بما كان فيه من عداوات وصراعات، وأنه بدلاً من ذلك يبدأ صفحة جديدة لا غبار عليها من مخلفات الأحداث الماضية.

وقد حمل معاوية الجزء الرابع والأخير من افتتاحيته تحذيراً وجهه إلى القوم بالابتعاد عن الفتنة وكل ما يشبهها، وحتى مجرد المحاولة، وذلك لما استجره على أصحابها من نتائج سيئة على المدى القريب، وأيضاً المدى البعيد.

وختم معاوية افتتاحيته بطلب المغفرة من الله تعالى له وللقوم الحضور.

• • •

٣- وصينا معاوية:

استمر معاوية بن أبي سفيان خليفة حتى وافته منيته في شهر رجب سنة ستين هجرية، ومعنى هذا أنه بقي في هذا

معاوية نفسه وسياسته، وقد انتقل معاوية إلى هذا الجزء انتقالاً طبيعياً بعيداً عن التكلف والافتعال، فبعد أن أكد صعوبة تكرار أي من عهود الثلاثة الراشدين، وكل منها كان مثالياً، قدم نفسه وسياسته في صورة واقعية للغاية، وأساس هذه السياسة هي المنفعة المشتركة بينه وبين الآخرين، مع التأكيد أنه وإن لم يكن يخبرهم فقيه خبير لهم. ولم يلوح معاوية بالعود البراقة والأمانى الحادعة، بل كان صادقاً مع نفسه ومع القوم حينما طلب منهم أن يكتفوا بقبول بعض حقوقهم إذا وجدوه لم يقم بكل هذا الحق، ووجد معاوية في السيل وما يرتبط كثرته من مضار، وما يترتب على القليل منه من منافع - أقول: وجد معاوية في السيل هذا بغية فضرب به المثل، وكأني به يريد أن يقول للقوم إن بعض الحق الذي يمكن الحصول عليه بيسر وسهولة أفضل من كل الحق الذي لا يمكن الوصول إليه إلا بالمشقة ورجوب الصعب من الأمور.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أكد معاوية أن سياسته تقوم على عدم

«يا بني إني قد كفيتك الرحلة
والترحال، ووطأت لك الأشياء،
وذلت لك الأعداء، وأخضعت لك
أعناق العرب»^(١٥).

كما يقول له أيضاً:

«انظر أهل الحجاز فإنهم أصلك
فأكرم من قدم عليك منهم وتعاهد من
غاب، وانظر أهل العراق فإن سألوك أن
تعزل عنهم كل يوم عاملاً فافعل، فإن
عزل عامل أحب إلى من أن تشهر عليك
مائة ألف سيف، وانظر أهل الشام
فليكونوا بطانتك وعبيتك فإن نابت
شيء من عدوك فانتصر بهم، فإذا
أصبتهم فاردد أهل الشام إلى بلادهم
فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير
أخلاقهم.

وإني لست أخاف من قريش إلا
ثلاثة، حسين بن علي وعبدالله بن عمر
وعبدالله بن الزبير، فأما ابن عمر فرجل
قد وقده الدين فليس ملتصقاً شيئاً
قبلك، وأما الحسين بن علي فإنه رجل
خفيف، وأرجو أن يكفيك الله بمن قتل
أباه ويحذل أخاه، وإن له رحماً مائة
وحقاً عظيماً وقرابة من محمد ﷺ، ولا

المنصب مده تزيد على تسع عشرة سنة
بعده شهور، وهذه المدة طويلة بالنظر
إلى فترات الخلفاء السابقين، فهي تعدل
تسعة أمثال الفترة التي أمضاها أبو بكر
الصديق، وأربعة أمثال الفترة التي مكثها
علي، ونكاد تكون ضعف مدة عمر،
وأيضاً ضعف خلافة عثمان رضي الله عن
الجميع، ولا شك أن معاوية بطول
عهده وبالكثير من القواعد التي أرساها
قد خلف بصانته القوية لاعلى الدولة
الأموية فحسب، بل وعلى التاريخ
الإسلامي أيضاً.

وقد سجل التاريخ لمعاوية أنه ترك
في مرضه الأخير وصيتين لابنه يزيد، في
الأولى يحدد معاوية لابنه، الذي سيتولى
الخلافة من بعده، أبرز المشكلات التي
يتوقع أن تواجهه، ويوصيه أو يبيد رأيه
في الأسلوب الذي يجب عليه أن ينتهجه
في معالجة كل من هذه المشكلات، كما
أنه يحدد له أهم خصائص واتجاهات
الناس في أهم الأقاليم الذي تتكون منها
دولته.

يقول معاوية لابنه يزيد في هذه
الوصية^(١٦):

أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه، فإن قدرت عليه فاصفح عنه فإني لو أني صاحبه عفوت عنه، وأما ابن الزبير، فإنه يحب صب فإذا شخص لك فالبلد له، إلا أن يلمس منك صلحاً فإن فعل فاقبل».

وفي رواية أخرى:

«فإن هو فعلها بك (أي فإن نار ابن الزبير ضدك) فقدرت عليه فقطعه إرباً إرباً».

وفي ختام هذه الوصية أوصى معاوية ابنه قائلاً:

«واحقن دماء قومك ما استطعت».

وتنقسم هذه الوصية من حيث الأفكار الرئيسية التي تحملها إلى ثلاثة أقسام: في القسم الأول أبرز معاوية لابنه يزيد ما عمله من أجله وما هياه لمستقبله، وأنه بهذا قدم له ما لم يقدم أب لابنه، وذلك بالنسبة لما مضى من تاريخ الدولة الإسلامية، وهذه حقيقة، فالخلفاء السابقون لم يعمل أحد منهم من أجل أسرته، أو من أجل بناء ملك يورثه ابنه من بعده، فمعاوية من هذه الزاوية

أول من أرسى مبدأ الوراثة في نظام الخلافة، وهو بهذا المبدأ جعلها أقرب إلى الملك العضوض منها إلى نظام الخلافة الإسلامية الذي كان مطبقاً على عهود الخلفاء الراشدين.

وفي القسم الثاني من الوصية يقدم معاوية لابنه معرفته بأهل الأقاليم، واقتصر معاوية في ذلك على الحجاز والعراق والشام، وذلك لأن أبناء هذه الأقاليم الثلاثة هم الذين يحددون مسار الدولة الأموية، الحجاز بمكانته الروحية العالية، والعراق موطن العناصر المناهضة للدولة الأموية، وأخيراً إقليم الشام الذي أقام أبناؤه بسواعدهم وسيوفهم ملك معاوية وأسرته.

فالحجاز هو الوطن الأساسي ليزيد والأسرة الأموية، وأهله لذلك هم من الحقوق على يزيد ما ليس لسواهم، وعلى يزيد في ضوء هذه الحقيقة أن يكرم من قدم عليه من الحجازيين، أما من غاب فعليه أن يتابع أخباره ويفتش عن أحواله. هذا بالنسبة لأهل الحجاز بصفة عامة، ومن بين الحجازيين أفراد معينون لكل منهم تطلعاته السياسية، وقد

أفردهم معاوية بالحديث فيما بعد.

وأهل العراق يتسمون بصعوبة الانقياد، وباللجاج فيما يطلبون، وهم أيضاً مندفعون إلى درجة قد تصيب الدولة الأموية بأفدح الأضرار، وذلك لأنه في هذا الإقليم توطنت الأفكار المعادية للمؤمنين، وخاصة الأفكار الشيعية. وقد أوصى معاوية ابنه يزيد بالأسلوب الذي يجب عليه أن ينتهجه في التعامل مع أهل العراق، وهو أسلوب يتسم بالانصياع لما يطلبون، وذلك في قوله:

«..... فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملاً فافعل، فإن عزل عامل أحب إلي من أن يشهر عليك مائة ألف سيف».

ويؤكد حديث معاوية عن أهل العراق رؤيته السياسية الصادقة والبعيدة، وأوضح الأدلة على ذلك موقف أهل العراق المناوئ لكل من مروان وعبد الملك، وهو الموقف الذي حمل الأخير على أن يرميهم بالحجاج بن يوسف الثقفي الذي ابتدأ عهده هناك بخطبته المشهورة بالبراءة، والتي قال

فيها^(١٦٦):

أنا ابن جلا وطلاع الشيا
متى أضع العمامة تعرفوني

أما والله إني لأحمل الشر محمله
وأخذوه بفعله، وأجزيه بمثله، وإني
لأرى زهواً قد أبنت وحان قطافها،
وإني لأنظر إلى الدماء بين العائم
واللحي».

ناهيك عن موقف أهل العراق من
خلافة يزيد نفسه، ودورهم في حركة
الحسين بن علي، وهي الحركة التي كانت
لها آثارها السلبية البعيدة على مستقبل
الدولة الأموية.

أما أهل الشام فهم على العكس من
أهل العراق يتميزون بالإخلاص للأسرة
الأموية، والتفاني في سبيل دولتها، ومن
ثم فإنهم أحق الناس بأن يتخذ منهم يزيد
بطانته والمقرين إليه، وإن يجعل منهم
القوة التي يقارع بها الأعداء، ومعاوية
في رؤيته لأهل الشام يتطرق من تجربته
الخاصة معهم، فقد تولى الحكم عليهم
كامير لسنوات طويلة^(١٦٧) لمحج معاوية

التاريخ تعود بحدودها الأولى إلى تلك
تاريخ الدولة الإسلامية.
السنوات المبكرة من تاريخ الدولة
الإسلامية.

وفي الحديث عن أهل الشام أوصى
معاوية ولده بألا يترك أهل الشام
يستوطنون بلاداً غير بلادهم؛ لأنهم في
هذه الحالة سيفقدون خصائصهم
المميزة، ومن أبرزها الإخلاص للأسرة
الأموية، وهنا ربط معاوية بين البيعة
وطبائع وأخلاق وخصائص البشر، وهي
نظرية أكدها علماء الاجتماع وفي
مقدمتهم ابن خلدون المتوفي سنة
٨٠٩هـ.

وبعد أن انتهى معاوية من وصاياه
ونصائحه ليزيد بشأن أسلوب التعامل مع
أهل الأمصار الثلاثة، وهي وصايا
ونصائح تتسم بالعموميات - أقول: بعد
هذا انتقل معاوية في وصيته إلى الحديث
عن الرجال الذين يخشى خطرهم على
يزيد وخلافته، وهنا يتضح صدق رؤية
معاوية المستقبلية، ودقته في فهم الرجال
وتصوره لمواقفهم، وأيضاً تبرز كياسته
والتي تمثلت في وصيته لابنه بكيفية

خلافها في توليق العلاقات الطيبة بينه
وبينهم، وكانت هذه العلاقات هي
الأساس الذي جابه به معاوية على بن
أبي طالب في أزمة العلاقات بين
الرجلين، وهي الأزمة التي وصلت إلى
ذروتها في معركة صفين التي دارت
أحداثها في سنة ٣٧هـ. وبعد هذه
المعركة استمر دعم أهل الشام لمعاوية
حتى وصلوا به إلى منصب الخلافة.

كما يسجل التاريخ لأهل الشام
دورهم الإيجابي في مساندة مروان بن
الحكم ضد عبدالله بن الزبير، وهي
المساندة التي أسفرت عن إعادة تأسيس
الدولة الأموية بعد سقوطها وما بدا من
أن الخلافة قد آلت إلى عبدالله بن الزبير
في الحجاز.

ويبرز لنا مدى صدق الحس
السياسي لدى معاوية في فهمه لأهل
الشام من أنهم - وبعد حوالي مائة عام
من سقوط الدولة الأموية - كانوا لا
يزالون شديدي الولاء للدولة
الأموية^(١٨)، ولا يستبعد أن تكون
الاختلافات التي كونت العلاقات بين
العراق والشام في الكثير من فترات

وذلك لما له من حقوق أساسها حق الرحم وقرابته اللصيقة بالرسول ﷺ. أما ثالث الثلاثة فهو عبدالله بن الزبير، وهو في رأي معاوية أخطرهم وأشدهم كراهية لخلافة يزيد، وتمكن عطلورته في أنه يعرف جيداً كيف يترصد وكيف يراوغ، ويرجع معاوية أن ابن الزبير سيخرج على خلافة يزيد، وفي هذه الحالة يجب على يزيد أن يتصدى له بكل ما أوتي من قوة، وفي حالة الانتصار عليه لا يعامله بالرفقة كما في حالة الحسين، بل لا بد من تمزيق أشلائه وتقطيع أوصاله. وفي الوقت نفسه يجب على يزيد ألا يجمع في إراقة الدماء، وبخاصة دماء أهل الحجاز الذين قد يساندون ثورة ابن الزبير.

• • •

هذه هي الوصية الأولى، وقد حفظ لنا التاريخ وصية ثانية يقال إن معاوية قبيل موته أوصى بها ابنه يزيد، وفي هذه الوصية يقول معاوية^(١٠):

«يا يزيد اتق الله، فقد وطأت لك الأمر. ووليت من ذلك ما ووليت، فإن

التعامل مع كل حالة على حدة. أما الرجال الذين يرى معاوية في كل منهم مناوئاً ليزيد فهم ثلاثة الحسين بن علي وعبدالله بن عمر وعبدالله بن الزبير. وحدث معاوية عن كل من هؤلاء الثلاثة يبدأ بتوضيح فهم معاوية له، ورأيه فيه من حيث قبول أو رفض خلافة يزيد، وينتقم معاوية حديثه بالتركيز على الأسلوب الذي يجب على يزيد أن يتعامل به مع كل، فرأى معاوية في عبدالله بن عمر أنه^(١١) «رجل قد وقذته العبادة فإن لم يبق أحد غيره يابعك». أي أنه رجل قد كرس نفسه للعبادة وغدت أمور الدين شغله الشاغل، ولكنه لا يجب أن يخرج على ما يراه أهل الحجاز فإذا لم ينافسك في المنصب أحد يابعك وأذعن لخلافك.

أما الحسين بن علي رضي الله عنهما فهو في رأي معاوية رجل بعيد عن التريث وإحكام التدبير، سريع الاستجابة والانصياع، وأن أهل العراق سيدفعونه للثورة ضدك، فإذا حدث هذا وتغلبت عليه فلا تمنع في الانتقام، بل ينحتم أن تغفر عنه وتصفح عن أخطائه.

الناس لك حقت، وعظمت مملكتك
وعظمت في أعين الناس.

واعرف شرف أهل المدينة ومكة
فإنهم أصلك وعشيرتك، واحفظ لأهل
الشام شرفهم فإنهم أهل طاعتك،
واكتب إلى أهل الأمصار بكتاب
تعددهم فيه منك بالمعروف فإن ذلك
يسط آمالهم، وإن وفد إليك وافد من
الكور كلها فأحسن إليهم وأكرمهم فإنهم
لمن وراءهم.

ولا تسمعن قول قاذف ولا ما حل
فإنني رأيتهم ووزراء سوء.

وهذه الوصية، من حيث المحتويات
العامية، تنقسم إلى ستة أقسام، في كل
قسم تحدث معاوية إلى ابنه عن قضية من
القضايا التي تشغل باله، ورسم له النهج
الذي يراه مناسباً في معالجة كل من هذه
القضايا، وكأنني بمعاوية يريد أن يقول
لابنه إنه، وهو الرجل الداهية ذو الخبرة
العريقة والطويلة، يأمل من ابنه أن يسير
على نفس الأسس والمبادئ التي أرسى
دعائمها والتي أثبتت نجاعتها في الظروف
الصعبة والمعقدة التي واجهت معاوية

كان بك خيراً فأنا أسعد به، وإن كان
غير ذلك شقيت به، فافرق بالناس
وأعخص عما بلغك من قول تؤذي به
وتنتقص به، وطأ عليه بينك عيشك
وتصلح لك رعبتك، وإياك والمناقشة
وحمل الغضب، فإنك تهلك نفسك
ورعبتك.

وإياك وخيرة أهل الشرف
واستأنتهم والتكبر عليهم، ولن هم لنا
لا يروا منك ضعفاً ولا خورا، وأوطئهم
فراشك وقربهم إليك وأدبهم منك،
فإنهم يعلمون لك حقت، ولا تنهم ولا
تستخف بحقهم فبيبتوك ويستخفوا بحقت
وبقعوا فيك. فإذا أردت أمراً فادع أهل
السن والتجربة من أهل الخير من المشايخ
وأهل التقوى فشاورهم ولا تخالفهم،
وإياك والاستبداد برأيك، فإن الرأي
ليس في صدر واحد، وصدق من أشار
عليك إذا حملك على ما تعرف، وأخزن
ذلك عن نساك وتحذمك. وشمر إزارك
وتعاهد جندك وأصلح نفسك تصلح لك
الناس، ولا تدع هم فيك مقالاً فإن
الناس سراع إلى الشر. واحضر الصلاة،
فإنك إن فعلت ما أوصيت به عرف

سواء في الخطوات والمراحل التي انتهت بتأسيس الدولة الأموية، أم في إدارة هذه الدولة والسير بها بنجاح على مدى ما يقرب من عشرين سنة.

في القسم الأول من الوصية أوصى معاوية ابنه بالرفق بالناس ونجاة الهنات التي تقع من بعضهم، والترفع عن شغل نفسه بمثل هذه الأمور أو المخاسبة عليها، وأبرز له أن مثل هذه السياسة ستؤدي إلى نتيجتين إيجابيتين، أولاهما الراحة النفسية، والثانية إصلاح الرعية وحبها له، وحب الرعية واحدة من الغايات السامية التي يحرص الحاكم أن تضيء سجل تاريخه، كما حذر معاوية ابنه من الدخول في مناهات الجدل والمناقشة التي تؤدي بالضرورة إلى الإثارة والغضب، وإذا سيطر الغضب على الخليفة أو الحاكم اختل ميزان العدل في يده، وفي هذا الاختلال هلاك للرعية وتدمير للدولة.

وفي القسم الثاني من وصيته حذر معاوية ولي عهده من الاستهانة بأهل الشرف والتعالي عليهم في حين أنه يجب عليه أن يتعامل معهم بالرفق واللين،

ولكن حذار من اللين الذي يوحى بالعجز والضعف، كما طلب معاوية من ابنه أن ينحس أهل الشرف بالقرب منه، وأن يحتفظ لهم بمكانة متميزة في مجالسه، إذ أن مثل هذه المعاملة الكريمة ستجد من أهل الشرف تفهماً فيقابلونها بالتقدير والعرفان، أما الإساءة إليهم والتحقير من شأنهم والازدراء بهم فسيرد عليه أهل الشرف بإهانة يزيد والاستخفاف به، وهذا ما لا يليق به كخليفة. وهنا نلاحظ أن معاوية قد أعطى أهل الشرف وزناً وأهمية تتجاوز نسبتهم العددية، وذلك لأنهم يشكلون زعامات لها تأثيرها الفعال على الكثيرين من فئات الرعية.

وفي القسم الثالث أوصى معاوية ابنه، في معالجة الأمور الهامة، باستشارة من هم أكبر منه سناً من ذوي الخبرة والدين، وضرورة الأخذ بما يبدون من آراء، وحذره من الاستبداد بالرأي، لأن الرأي الفردي يتسم غالباً بالقصور. كما أوصاه بأن يحتفظ بالأمور الهامة بعيداً عن علم النساء والخدم، ووضح من هذا أن معاوية كان يدرك جيداً ما يوصم به النساء عادة من التسرع في الرأي

من فاعلية وتأثير لا تنتجها المواظ
ومنمقات الكلام. كما أوصى معاوية ابنه
بألا يترك لأي نقطة ضعف - مها بدت
صغيرة - أن تلحق به وتكون مثاراً
للأقوابل؛ وذلك لأن النفوس البشرية
جبلت على سرعة التصديق للجوانب
السيئة والنواحي الناقصة، والعاقل من
يغلق تماماً مثل هذه الأبواب.

وقد خصص معاوية القسم الخامس
من الوصية في التأكيد على يزيد بضرورة
معرفة لشرف ومكانة أهل مكة
والمدينة، وأيضاً أهل الشام، كما حث
على أن يبدأ عهده بالمعروف، وأن يبعث
إلى أهل الأمصار بكتب تحمل نواياه
الطيبة، كما أوصاه بأن يعامل من يفد
عليه من الأمصار بالإحسان والتكريم؛
لأنهم سيتقلون الصورة التي يعاملون بها
إلى أبناء أمصارهم، ومن مصلحته
ومصلحة دولته أن تكون الصورة التي
تنقل عنه صورة مضبئة.

وفي القسم السادس أوصى معاوية
ابنه بألا يصغي لأولئك الذين يحلو لهم
أن يتألوا من الآخرين، فمثل هؤلاء
تكون سعاباتهم من أجل النيل من أفراد

والافتقار إلى الدقة والفراسة في معالجة
الأمر والحكم على الأحداث، ومن ثم
عشي على ابنه أن يصدر في معالجته
لبعض القضايا الهامة، ذات الصلة
المباشرة بالدولة، عن مثل هذه
المستويات. والحتم هم الآخرون منهم
من يكون مدسوساً ومنهم من تكون
هوابته نقل الأخبار مع التحويل والتشويه
كما يفسد على المرء الكثير من خططه
ومعالجاته، وبالنسبة للشخص العادي
يكون الأمر، أما بالنسبة لمن هو في مثل
وضع يزيد فإن هذا التهاون ينقلب إلى
تفريط بالغ الخطورة عليه وعلى دولته.

وفي القسم الرابع أوصى معاوية ابنه
بالجد والعمل الدؤوب، ورعاية الجيش
ومراقبته، وأهم ما في هذا القسم قول
معاوية ليزيد:

وأصلح نفسك تصلح لك الناس،
ولا تدع لهم فيك مقالاً، فإن الناس
سراع إلى الشر.

نعم فالبدء الحقيقية لأي إصلاح
على المستوى العام تكمن أولاً في إصلاح
المشول الأول لنفسه، وذلك لما للقدوة

يكون لهم الكراهية والعداء، ولكنهم يقدمون هذه السعايات في إطار الحرص على تقديم النصيحة وإسداء المعروف، وتجربة معاوية مع هذا الصنف من الناس أنهم وزراء شر ونصحاء سوء.

٤ - شخصية معاوية من وصاياه:

هذا هو مؤسس الدولة الأموية من افتتاحه ووصيته أو وصاياه^(١١)، وهي تؤكد كما سبق أن أشرنا أنه رجل دولة من طراز نادر، وأنه معلم وصاحب مدرسة سياسية بارزة. ويكفي أن نعرف أنه قد تجلت من وصاياه الرؤية السياسية البعيدة التي تميز بها هذا الرجل، وأن عدم التزام ابنه يزيد بهذه الوصايا قد أدى إلى سقوط الفرع السفلي في الدولة الأموية.

وفي إطار الرؤية السياسية البعيدة لمعاوية يكفي أن نشير إلى العلاقات بين الأسرة الأموية من ناحية، وكل من أهل الحجاز وأهل العراق وأهل الشام من ناحية ثانية، وهي رؤية أكدت الأحداث صدقها على مدى العديدين من الأجيال.

وإلى جانب رؤيته السابقة كانت لمعاوية فراسة في الرجال الذين رأى في كل منهم مرشحاً لمناوأة يزيد في الخلافة، ولا تقف هذه الفراسة عند مجرد ذكر أسماء هؤلاء الرجال، بل إنها تتعدى ذلك إلى تحديد خصائص شخصية كل منهم وأسلوبه المحتمل في التصدي ليزيد، وأيضاً الطريقة التي يجب على يزيد أن يتبعها في معالجة الموقف مع كل.

هذه الجوانب في وصية معاوية تبرز مدى ما كان يتمتع به هذا الرجل من رؤية سياسية بعيدة وصادقة، بالإضافة إلى دقة في الحكم، وعمق وشمول في فهم الأمور، وتنضح هذه الأبعاد لوصايا معاوية فيما آل عليه حال الدولة الأموية نتيجة لخروج يزيد على هذه الوصايا وعدم الالتزام بها.

وتعيد إلى الذاكرة ما أوصى به معاوية ابنه في التعامل مع الحسين بن علي رضي الله عنهما في حالة خروجه على يزيد، فقد أوصى معاوية ابنه بقوله: «فإن قدرت عليه فاصفح عنه، فإني لو أني صاحبه عفوت عنه».

هذا ما أوصى به معاوية ابنه بشأن أهل الحجاز، بيد أن يزيد لم يبع هذه الوصية ولم يأخذ بها، وها هو ذا قائد مسلم بن عقبة يبالغ في إذلال أهل المدينة عقب الانتصار عليهم في موقعة الحرّة، فقد سجل التاريخ على مسلم بن عقبة، قائد يزيد، أنه أجبر أهل المدينة على أن يكون استسلامهم ذليلاً للغاية حينما حتم أن يكون نص البيعة^(٢٢) :

«على أنه خول ليزيد بن معاوية يحكم في أهلهم ودمائهم وأموالهم ما شاء».

وفوق هذا الإذلال سجل التاريخ على مسلم بن عقبة أنه أباح المدينة وانتكح حرمها عدة أيام^(٢٣). وللباحث أن يقارن هذه الصورة البشعة بموقف الرسول ﷺ من أهل مكة عقب فتحها، الموقف النبيل الذي عبر عنه الرسول في قوله لأهل مكة:

«اذهبوا فأنتم الطلقاء».

على أية حال، فإن عدم التزام يزيد بوصية أبيه في معاملة أهل المدينة معاملة كريمة تليق بهذه المدينة ومكانتها السامية

وفعلاً أعلن الحسين خروجه على يزيد، وذلك بتشجيع من أهل العراق تماماً كما ارتأى معاوية، وسجل التاريخ لقوات الدولة الأموية أنها تغلبت على الحسين وجاعته، وكان من الممكن أن يقف الأمر عند هذا الحد ويعفو يزيد عن الحسين تنفيذاً لوصية معاوية، ولكن شهوة الانتقام سيطرت على قائد قوات يزيد، وتطور الأمر إلى استشهاد الحسين ومعظم من كان معه من أهل البيت بصورة بالغة القسوة جعلت من مأساة استشهادهم سبباً مباشراً من أسباب سقوط دولة الفرع السيفاني.

وإلى جانب خروج يزيد على وصية أبيه في شأن الحسين بن علي، فإنه أيضاً خرج على ما أوصاه به أبوه في شأن أهل المدينة، فقد أوصاه بهم خيراً في وصيته حيث قال له:

«انظر أهل الحجاز فأكرم من قدم عليك منهم وتعاهد من غاب».

كما قال له أيضاً في وصيته الثانية:

«واعرف شرف أهل المدينة ومكة فإنهم أصلك وعشيرتك».

في تاريخ الدعوة الإسلامية - أقول: إن عدم التزام يزيد بوصية أبيه كانت سبباً مباشراً في تقويض حكم الفرع السقياني من الدولة الأموية.

ومن إضافة العناصر التي احتوت عليها الوصيتان إلى تلك التي برزت في الافتتاحية، يتبين لنا أن معاوية كان سياسياً بارعاً يتحلى بالرؤية البعيدة والفهم العميق، وكان أيضاً رجلاً دولة من طراز متميز، وأنه من هاتين الزاويتين فاق الكثيرين من أبناء جيله، وقد تجسد تفوقه هذا في النجاح الذي أحرزه في إقامة دولة باسم الأسرة الأموية، وذلك على الرغم من اتزواء العصية القبلية أمام القيم الإسلامية التي شكلت أسس الحياة وقواعد السياسة في هذه الحقبة من تاريخنا الإسلامي.

٥ - افتتاحية يزيد:

ومن معاوية ينتقل بنا الحديث إلى الخليفة الثاني يزيد بن معاوية والذي كان حينما تولى الخلافة في منتصف العقد الرابع من العمر، فقد سجل له التاريخ أنه افتتح عهده بخطبة قال فيها بعد حمد الله والثناء عليه^(٢٤):

«إن معاوية كان حياً من حبال الله مده الله ما شاء أن يمهده، ثم قطعه حين شاء أن يقطعه، وكان دون من كان قبله، وخير ممن بعده، إن يغفر الله له فهو أهله. وأن يعذبه فيذنيه.

وقد وليت الأمر بعده، ولست أعتذر من جهل ولا أشتغل بطلب علم، فعلى رسلكم فإن الله لو أراد شيئاً كان». ومما قاله في خطبته هذه:

«إن أي كان يغزيكم البحر ولست حاملكم في البحر، وإنه كان يشتيكم بأرض الروم، فليست أشتى المسلمين في أرض العدو، وكان يخرج العطاء أثلاثاً وإني أجمعه لكم».

وتتكون هذه الافتتاحية من ثلاثة أقسام، في الأول منها تحدث يزيد عن أبيه معاوية حيث حدد مكانته بالنسبة للسابقين وأيضاً بالنسبة لللاحقين، ويزيد في حكمه على أبيه من هذه الناحية يتفق جزئياً ومما قاله معاوية عن نفسه في افتتاحيته، وأعني بذلك قوله:

«ولقد أردت نفسي على عمل أي بكر وعمر فلم أجدها تقوم بذلك،

تمايز بين الأفراد، فترفع من مرتبة هذا وتنزل بمكانة ذلك، والأعمال هي المعيار الإسلامي الذي توزن به أقدار الناس.

على كل حال، من الممكن التسليم بما قاله الرجلان في جزئيه الأولى، أي تحديد مكانة معاوية بالنسبة لمن سبقوه، أما بالنسبة للجزئية الثانية، أي اعتبار معاوية أفضل من الذين سيأتون بعده، فهو من الأحكام العامة والسابقة لأوانها، وبالتالي لا يمكن التسليم بها.

وفي القسم الثاني أوضح يزيد أنه قد تولى الأمر من بعد أبيه معاوية، وأنه يتحمل مسؤولية وأعباء هذا المنصب الخطير بصورة كاملة، لأنه يعرف تماماً مهام منصبه، ولا يوجد أمر آخر يشغله أو يصرفه عن واجباته:

«ولست أعتذر من جهل ولا أشغل بطلب علم».

وفي هذا القسم من الافتتاحية يبدو من يزيد بعده عن التواضع الذي وضع بجلاء في افتتاحية أبي بكر الصديق رضي الله عنه، كما يبدو أيضاً بعد يزيد عن الممكن الذي ركز عليه معاوية

ووجدتها عن عمل عمر أشد نقوراً، وحاولتها على مثل سنين عثمان فأبت على، وأين مثل هؤلاء، هيات أن يدرك فضلهم».

ويبدو من كلام الرجلين حول هذه النقطة أنها يعلان عصر الرسالة عصر الذروة من حيث قوة التمسك بتعاليم الدين الإسلامي، هذا التمسك الذي يعتبر المعيار الذي يوزن به الناس، وفي مقدمتهم الخلفاء، وتحدد من خلاله مكانتهم والحكم عليهم في التاريخ. وبعد عصر الرسالة يأتي عصر الراشدين، وهكذا.... ومعاوية بهذا المعيار ونظراً لأن صحبته للرسول ﷺ، كانت أقل من صحبة أي من الخلفاء الثلاثة فإنه يأتي دونهم في المكانة، كما أن معاوية، وبهذا المعيار نفسه، يعتبر أفضل من الذين سيأتون بعده (٢٥).

وفي هذا الكلام قدر كبير من الصواب، غير أنه لا يمكن أن يسلم به على علانته أو دون قيود، لأن معنى ذلك أن العامل الزمني هو الفيصل في الحكم على الأشخاص، وفي الوقت نفسه يتجاهل أعمال الإنسان ومبادئه والتي

افتتاحيته، وإن دل هذا الموقف من يزيد على شيء، فإنما يدل على أنه في قرارة نفسه كان يشعر بتساؤله، ولكنه أراد أن يخفي هذا التساؤل فكانت كلماته البعيدة عن التواضع.

وفي القسم الثالث قدم يزيد في افتتاحيته مجموعة من الوعود معظمها لم يكن على حسابه، بل على حساب السياسة العامة للدولة التي سجلها التاريخ على عهد معاوية^(٢٧)، في الوعد الأول يقول يزيد:

«إن أي كان بغزبكم البحر ولست حاملكم في البحر»

وعن الوعد الثاني يقول:

«وإنه كان يشيكم بأرض الروم فلت أشى المسلمين في أرض العدو».

وقد ركز يزيد على هذين الأمرين لأنها كانا عنصريين بارزين في السياسة التي سار عليها معاوية تجاه الدولة البيزنطية، ويبدو أن المقاتلين المسلمين كانوا يعانون من ذلك كثيراً لشدة البرد في بلاد الروم بالنسبة لهم، وأن ركوب البحر كان بشكل واحدة من الصعاب

الكبيرة التي كانوا يواجهونها، ويزيد نظراً لأنه تولى قيادة بعض الحملات ضد بلاد الروم أراد أن يلمس بعض الجوانب ذات الحساسية الشديدة لدى الكثيرين حتى يضمن تأييدهم وتعاطفهم معه وترحيبهم بخلافته، فلا غرابة إذن أن يكون تعليق الذهبي على هذه الافتتاحية هو قوله^(٢٨):

«فافتروا بثنون عليه».

وأن يكون تعليق ابن كثير^(٢٩):

«فافترق الناس عنه وهم لا يفضلون عليه أحداً».

ونظراً لقصر عهد يزيد فإن الباحث لا يستطيع أن يتعرف بصورة قاطعة على مدى التزامه بما وعد به القوم في افتتاحيته، بيد أنه يلاحظ أن ما سجله التاريخ من غزوات ضد بلاد الروم في عهد يزيد كانت من نوع الصوائف، واحدة في سنة ٦١ والأخرى في السنة التالية^(٣٠). وأنه لم يحدث في عهد يزيد أن توجهت حملة إلى أي من الجزر البيزنطية في البحر المتوسط.

• • •

القوى الداخلية، كما حدث في معالجة حركة الحسين بن علي أو تمرد أهل المدينة المنورة، وربما يدفع البعض بأن مسئولية يزيد، بوصفه خليفة، كانت تحم عليه أن يقضي على حركة الحسين بن علي وأن يجابه تمرد أهل المدينة. وهذا الدفع صحيح ومقبول، والمرفوض هو المبالغة في الشنق والايغال في الانتقام.

والصورة من جانبها مناقضة تماماً لما كانت عليه سياسة الدولة الأموية تحت قيادة معاوية، وهي سياسة كانت تميل إلى الاسترخاء داخلياً والنشاط في مواجهة الأمبراطورية البيزنطية، وبما أن سياسة معاوية قد أثمرت من الناحية العملية العديد من النتائج الإيجابية، فإن السياسة المناقضة، سياسة يزيد، كان من المتوقع لها أن تنتج آثاراً سلبية. وهذا ما حدث بالفعل، ويكفي أن نعرف أن كل عوامل انبهار دولة الفرع السفلي قد تجمعت في الفترة الوجيزة التي أمضاها يزيد خليفة للمسلمين.

فيزيد لم يكن الشخص الذي اقتدى بأبيه، أو أفاد من تجاربه والتزم بوصاياه،

والحكم على يزيد من خلال افتتاحيته يبدأ من تعليق ابن كثير عليها، وهو التعليق الذي قال فيه:

«فافترق الناس عنه وهم لا يفضلون عليه أحداً»

وذلك لأن يزيد في هذه الافتتاحية قدم للقوم عدة وعود تعني في مجموعها آمالاً براقية ومشرفة بالنسبة للعامة.

وحقيقة الأمر أن هذه الوعود تتكون من شقين، شق يتصل بالسياسة الخارجية للدولة، وشق آخر يتصل بالفئات المستحقة للعطاء، ووعدا الشق الأول يعنيان أمراً واحداً بالنسبة للدولة الإسلامية، يعنيان نوعاً من الاسترخاء أو التكاثر في مجابهة الدولة البيزنطية، وذلك على عكس ما كان عليه الحال إبان عهد معاوية، وهذا النوع من الوعود يعني مغالطة كبيرة؛ لأنها وعود على حساب الغير، أو على حساب الدولة الإسلامية كما سبق أن أسلفنا.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن هذا الاسترخاء قد انعكس سلباً في شكل نشاط كبير، ولكن في مواجهة

وأيضاً لم يكن الشخص الذي انتج سياسة فاقت سياسة أبيه في العمل على توسيع نطاق الدولة، أو جمع الكلمة وتوحيد الأمة تحت راية الدولة الأموية.

هذا هو يزيد من الفتاحيته، ولم أعثر في المصادر التي رجعت إليها على وصايا نسب إليه حتى تزداد معرفتنا بشخصيته، هذه الشخصية التي يمكن إجمال القول فيها بأنها كانت مناقضة لشخصية أبيه معاوية الذي يعتبر واحداً من دهاة^(٣٠) العرب.

● الفوامش ●

- (١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٣ ص ١٨٢، ١٨٣.
- (٢) يوجد نص هذه الخطبة في الأعيان الموقبات ص ٥٧٩، وأيضاً لدى ابن الأثير (الكامل ج٢ ص ٣٢٢) ونص الزبير بن بكار وابن الأثير يتفقان في صومهما مع النص الذي قدمه ابن سعد مع إضافة لدى الأخير تشتمل في قوله إن شاء الله تعالى لا بدع أحد منكم الجهاد فإنه لا بدعه قومه إلا ضرهم الله بالذل، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم.
- (٣) ابن الأثير، الكامل ج٢ ص ٤٢٦ - ٤٢٧.
- (٤) ابن سعد، المصدر السابق ج٣ ص ٢٧٤.
- (٥) ابن الجوزي، مناقب عمر بن الخطاب الطبع تحت عنوان: تاريخ عمر بن الخطاب ص ١٦١.
- (٦) ابن سعد، المصدر السابق ج٣ ص ٦٢.
- (٧) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ج١ ص ٢٧٢.
- (٨) المصدر السابق ج١٧ ص ٥ - ٦.
- (٩) توجد لدى ابن كثير ثلاث روايات حول تاريخ هذه الخطبة لتعاقبها، أولاًها أن معاوية قدم المدينة عام الجماعة (٤١ هـ) وهناك ألقى هذه الخطبة من على المنبر بمسجد الرسول ﷺ، والثانية أن هذا حدث عام حج ٤٤ هـ، والثالثة أنها حدثت أثناء حجه في سنة ٥٠ هـ (البداءة والنهاية ج٨ ص ١٣٢)، ومن مراجعة المصادر التاريخية لا نجد فيها ما يفيد أن معاوية ذهب إلى الحجاز عام الجماعة، وأنه أقام الحج في سنة ٤٤ هـ وسنة ٥١ هـ، وهذا يعني سقوط الرواية الأولى، أما الرواية الثالثة فإن معاوية قد ركز اهتمامه في سنة ٥١ هـ على قضية كانت آنذاك بالغة الأهمية بالنسبة له، تلك هي مبايعة ابنه يزيد بالخلافة من بعده، وورثته الملحة في حمل زعماء الحجاز على البيعة ليزيد بولاية العهد، وقد شغلت هذه القضية جل وقته في الحجاز بحيث لم تنرك مكاناً للقضية أخرى، وهذا إضافة إلى أن نصري الخطبة يحتم أن يكون توقيتها في أوائل عهد معاوية، وليس بعد مضي عشرة أعوام من خلافته. وهذا يعني أيضاً سقوط الرواية الثالثة. وتبقى بعد هذا الرواية الثانية فهي أكثر الروايات قبولاً وتوافقاً بين توقيتها ومحتواها.

- (١٠) نص الخطبة منقول من الذهبي، سير أعلام النبلاء ج٣ ص ١٤٨ - ٤٧٩، كما يوجد النص نفسه لدى ابن عبد ربه (العقد الفريد ج٣ ص ١٣٩) وابن كثير (البداءة والنهاية ج٨ ص ١٣٢) ولكن مع تغيير شكلي في بعض الألفاظ.
- (١١) ابن كثير ج٨ ص ٢٢٩.
- (١٢) ابن الأثير ج٤ ص ٥.
- (١٣) وردت هذه العبارة في نص الخطبة لدى ابن كثير ج٨ ص ١٣٢.
- (١٤) أورد الطبري روايتين لهذه الوصية (انظر الجزء السادس ص ١٧٩ - ١٨٠) كما أورد ابن الأثير (ج ٤ ص ٦) وكذلك ابن خلدون (ج٣ ص ٤٠ - ٤١) الوصية التي أوردتها الطبري في الرواية الأولى، ومن المصادر الأدبية انظر الجاحظ (اليان والشيبي ج٢ ص ٦٦) وابن عبد ربه (العقد الفريد ج٢ ص ١٤١).
- (١٥) هذا النص من الوصية الأولى، انظر الطبري ج٦ ص ١٧٩.
- (١٦) الطبري ج٧ ص ٢١٠.
- (١٧) ابتداء من سنة ١٨ هـ.
- (١٨) ذكر الطبري أن رجلاً تعرض للمأمون بالشام قائلاً له: يا أمير المؤمنين انظر لعرب الشام كما نظرت لأهل خراسان، فقال المأمون: أكثر على يا أبا أهل الشام، والله ما أتزلت قبساً عن ظهور الخيل إلا وأنا أرى أنه لم يبق في بيت مالي درهم واحد، وأما الجن فوائده ما أحببنا ولا أحبتي قط، وأما ففاعة فسادنا تنظر السقباني وخروجه فتكون من أشباعه ... أقرب فعل الله بكه انظر الطبري ج١٠ ص ٢٩٦.
- (١٩) كما ورد في نص الوصية لدى كل من ابن الأثير (ج٤ ص ٦) وابن خلدون ج٣ ص ٤٠ - ٤١.
- (٢٠) ابن كثير ج٨ ص ٢٢٩ - ٢٣٠.
- (٢١) ذكر أن معاوية وهو في مرضه الأخير خطب في نفر من قريش خطبة وداعية، وتبرز في هذه الخطبة معرفته الدقيقة بأنواع الرجال، انظر الجاحظ (اليان والشيبي ج٢ ص ٢٨) وابن عبد ربه (العقد الفريد ج٢ ص ١٤١) وابن أبي الحديد (شرح نهج البلاغة ج١ ص ٤٠).
- (٢٢) تاريخ خليفة ابن خياط ج١ ص ٢٣٠.
- (٢٣) الطبري ج٧ ص ١١.
- (٢٤) أورد هذه الافتتاحية كل من السعودي (مروج الذهب ج٣ ص ٧٥) وابن كثير (ج٨ ص ١٤٣ - ١٤٤) كما أورد الذهبي القسم الأخير منها (سير أعلام النبلاء ج٤ ص ٣٧) وقد نقلنا القسمين الأول والثاني عن السعودي، ونقلنا القسم الأخير عن الذهبي، وقد ألقى يزيد هذه الخطبة في اليوم الرابع من بداية خلافته.
- (٢٥) نذكر القارئ بما سبق أن أشرنا إليه من أن معاوية خطب قبل مرضه الأخير خطبة قال فيها: «ولن يأتيكم بعدي إلا من أنا خير منه، كما أن من قبلي كان خيراً مني». (ابن الأثير ج٤ ص ٥، ص ١٢ من هذا البحث).
- (٢٦) من مراجعة تاريخ معاوية نجد أنه كان يحرص على أن يبعث جيشاً إلى بلاد الروم كل شتاء، وأن ركوب البحر كان وسيلة القوات الإسلامية في عملياتها ضد دولة الروم وخاصة ضد الجزر التابعة لها في البحر المتوسط (انظر خليفة بن خياط ج١ ص ١٩٠ وما بعدها، وانظر أيضاً المصادر الأخرى في التاريخ للسنوات من سنة ٤٣ إلى سنة ٦٠).
- (٢٧) سير أعلام النبلاء ج٤ ص ٣٧. (٢٩) خليفة بن خياط ج١ ص ٢٢٦ - ٢٢٧.
- (٢٨) البداءة والنهاية ج٨ ص ١٤٣ - ١٤٤. (٣٠) ابن حبيب، المغير ص ١٨٤.